

## الفصل التاسع الخيام والشطح الصوفي

يقول القفطى فى تاريخ الحكماء (توفى سنة ٦٤٦ هـ)، إن متأخرى الصوفية وقفوا على شىء من ظواهر شعر الخيام فنقلوها إلى طريقتهم، وتناضروا بها فى مجالسهم وخلواتهم.

\*\*\*\*\*

وقال عنه البيهقى فى كتابه حكماء الإسلام : إنه الشيخ المطاح.

\*\*\*\*\*

وقال عنه محمد السباهى فى مقدمة ترجمته للرباعيات : إنما الخيام كان صوفياً عند فريق من النقاد، ويرمز للذات الإلهية بالفاظ الخمر والساقى والكأس وهلم جراً كحافظ الشيرازى وغيرهما.

وقال عنه الدكتور عبد الرحمن بدوى: إذا اعتبرنا بودلير يمثل نوعاً من التصوف هو التصوف إلى أسفل، فإن حافظاً الشيرازى يمثل تصوفاً إلى أعلى، والخيام فى مركز وسط بين كليهما، وكل ذلك فى داخل التصوف الحصى إن صحَّ هذا الجمع بين المتناقضات.

\*\*\*\*\*

وقال مصطفى الصباحى فى مقدمته لبعض التراجم على الرباعيات: إن الخيام فيلسوف متزهّد أو متصوف متعبد كائناتاً من كان شأنه - إنما هو شخص عالمى الفكر، بعيد الافاق، غير محدود المكانة فى عالم البحث والفلسفة.

\*\*\*\*\*

وفى الموسوعة الأمريكية: إن شعراء الصوفية لم يجدوا حرجاً أن ينهلوا من نبع الخيام. ويبدو أن عمر قد اشتغل بالتصوف، وهناك من يميل إلى تأويل أشعاره تأويلاً صوفياً.

\*\*\*\*\*

وفى الطبعة الألمانية للرباعيات للدكتور فريدريك أن الخمر فى الرباعيات يمكن تأويلها تأويلاً صوفياً.

\*\*\*\*\*

هذه شهادة البعض وقيل أن تناقضها، نريد أن نسأل أيضاً: هل إذا رفضنا أن الخيام صوفى، وأنه عنى بالخمر والساقى والكأس والحانة رموزاً صوفية - إذا رفضنا ذلك فهل يمكن

أن نصف النزعة المتسامية فيه بأنها نزعة إنسانية؟ وهل يكون إنكارنا لتصوفه مصدره شطحاته ضد الدين والله، ورموز الدين من صلاة وصيام وفقهاء، والمفتى إلى غير ذلك مما تحفل به الرباعيات؟

\*\*\*\*\*

**ثانياً: الشطح لا يعيب الخيام، فالصوفية الكبار كالحلاج والبسطامي ورابعة وابن عربي كان لهم شطحات لها تأويلات يفهمها كل من يتعمق التصوف ويحيط بلغته. والتصوف له مصطلحات كالخمر والسكر والنوق والصحور والحضور والفقء والغناء والخوف والخواطر والبقاء إلى غير ذلك، ومعانيها خبيثة وتحتاج إلى غواص.**

وما أشبه عتاب الخيام بعتاب رابعة في مخاطباتها لله تعالى حول العذاب والنار وغيرهما. وقول الخيام إلهي قل لي مَنْ خَلَا من خطيئة، وكيف تُرى عاش البريء من الذنب؟ أو قوله إذا كتبت تجزئ الذنب مني بملكه فما الفرق ما بيني وبينك يارب؟ أو سؤاله لماذا أتيت الكون أو فيم أذهب؟ أو هذا العتاب الشديد: لماذا غداة الرب ركب العناصر لم يُحكّم تناسبها؟ وإذا كان قد خلق الإنسان على أحسن صورة وفي أحسن تقويم ففيم يكون موته وخراب هذه الصورة؟ وإن لم تكن قد راقته له فخربها - فممن أتى العيب؟ أو تساؤله: إذا كنت الغفور فحتماً ستغفر للخاطئين لأن غيرهم لا يخطئ؟ وقوله: سيغفر لي إذن حتماً ولا موجب للخوف!، أو قوله: لو كانت لي مشيئة الأقدار لأعدتُ خلق العالم على الاختيار لا على الجبر، ولغيرت المقدورات بما يسعد الخلق: أو سؤاله: هل زادت طاعته لله من ملكه؟ وهل أنقصت خطاياهم منه؟ أو قوله: سأمتحن العصيان لك يارب مائة مرة، لأعلم هل ذنبي أم سماحك أجزل؟ أو: أن الله قد نصب الشباك فلماً وقع فيها الإنسان حاسبه بالذنب أو: إننا نفعل ما قضى الله به منذ الأزل فلماذا يحاسبنا؟ - كل ذلك الشطح لا يدل ربما على كفر أو ضلال أو تجديف في حق الله، ولكنه قوة انشغال بالدين وتنزيه لله عن كل نقص وعيب، وهو ماتوكده رسالاته الفلسفية، وقد أجب فيها عن كل هذه التساؤلات أو المعاتبات أو الخواطر التي ربما راودته فبحث فيها، أو ربما سئل فيها فإقتضى ذلك منه الجواب.

**وثانياً: القول بأن الخيام كان إنسانى النزعة لأنه كان مهتماً بالإنسان ذاته ولا شيء سواه، تدحضه فلسفة الخيام ذاتها كما طرحها في الرسائل، فالواضح أنه يعالج فيها مسائل الوجود، ولكنه عالجه باعتبارها متصلة بالإنسان الموجود والذي حضوره في الوجود ملموس.**

وشبيه بذلك فلسفة هاينجر الذي كان يولى بحثه الموجود الإنساني الذي اعتبره أصل الوجود. غير أن هاينجر لم يؤمن بالله، ولم يعترف إلا بالوجود الإنساني، وقال إن كل شيء في هذا الوجود للإنسان، وأنه لاشيء خارج الإنسان، وأنه معيار كل تقويم، وأن وجوده هو الوجود الحق، وأنه وجود أتى أي في الدنيا وليس بعد ذلك شيء، فالإنسان وتر مشهود بين الوجود والعدم وليس بعد ذلك شيء.

فهل كانت هذه نزعة الخيام التي نستخلصها من كتاباته كلها، بل ومن الرباعيات بخاصة؟ ألم يكن يحور ويدور حول الإنسان، واصفاً قلقه وآلامه وهمومه وأحزانه ومايرين عليه من أحكام وأقدار، ثم ينتهي إلى التوبة والندم والإقرار بالله؟

ألم يحاول الانتحار كما يقول هو نفسه لولا مُسكة الإيمان؟... وهذا الإيمان بالله هو نفسه ضد النزعة الإنسانية، فالنزعة الإنسانية ملحدة وليست لذلك نزعة إيمان.

وقيل إن النزعة الإنسانية كانت عند صوفية من المسلمين كابن عربي الذي قال بالإنسان الكامل. والخيام لم يكن أبداً يبشر بكمال الإنسان ولكنه كان يحكى عن عجزه ونقصه وقلة حيلته وجهله وعدم درايته وفقره ووقومه سريع الغهوات والأمراض.

وكانت الرباعيات الخيامية الحقيقية صبوات إشراقية صوفية، فيها استشراف للمطلق ورغبة في العلو والسموق، وفيها البحث عن المتعالي والتفتيش عن الإنسان العابد لا الإنسان الملحد.

ولم يكن الخيام يعجبه في قصة الطلق إبليس وسورة الاستكبار التي أبداهها ومطروحاته من العبارات السوفسطائية، وعلى العكس كان غرامه بالإنسان، هذا الموجود الذي خلق للمعرفة، وكانت خلقته من طين وروحه من الرحمن، فكان سريع العنصرين، وقلبه الصغير مسرحاً لاكبر معارك يمكن أن تقع في تاريخ الوجود، وميداناً تدور فيه الحروب سجالاتاً بين الشر والخير، وعقله هذا المسجون في زنزانة الرأس والذي ينبض في بطن الظلام بومضات من النور، يشرب خارج سجنه ويطول بفكره السماء ويعانق الشمس في أقصى الأفق.

والخيام في الفلسفة الإسلامية وجودي وإشراقي ومتصوف وفيلسوف مثالي وحكيم، بدأ بالمعارف الرياضية ومسائل الكم والعدد والحساب، وذهب بفكره إلى الأفلاك، فحاسها وعرفها وأحكم القول في علاقاتها بالأقدار، ثم تجرد فدرس الفلسفة وبحث في الوجود والخلق والحرية والجبر والاختيار، وارتقى إلى التفكير في الله، ثم الشعور به، فكأنه كان الأرضي في

حياته الأولى، ثم توسط بين الأرض والسماء، وأخيراً بلغ الذرى في تجريته الصوفية الذوقية. ورباعيات الخيام الصحيحة هي تحليل للوجود الذاتى - قد نقول إنه وجود الخيام نفسه، وقد نقول إنه كل وجود ذاتى على ما يقتضيه الوجود. وقال الخيام بالعقل الجزئى فى الرياضيات، ثم العقل الكلى فى الفلسفة، وأخيراً عرف العُدس الصوفى الذى يحكى عنه فى رسالة التكاليف وبلغ به اليقين بوجود الله.

وفى رسالته الفارسية عن كلييات الوجود والتي أسماها المؤرخون رسالة روضة القلوب نزولاً على رأى فخر الملك ابن الوزير نظام الملك، صنّف الخيام الطالبين لمعرفة الله أصنافاً أربعة هم : المتكلمون والفلاسفة والاسماعيلية والمتصوفة، ورجّح مذهب القائلين بالتصوف على سائر المذاهب، وقال عنهم وعن طريقتهم: إنهم لم يطلبوا معرفة الله عن طريق الفكر والبحث، وإنما عن طريق تصفية الباطن وتهذيب الأخلاق، فنزّهوا النفس الناطقة عن كدورة الطبيعة والهيئة البدنية، فإن هذا الجوهر لما تنزه ووقف أمام الملكوت ظهرت صور التحقيقات. وقال : تلك الطريقة هى أفضل الطرق، فقد يُعلم أن أى كمال من الكمالات غير ممنوع من حضرة الله سبحانه، بل كلها مسموحة. ولا منع ولا حجاب للإنسان إلاّ من كدورة الطبيعة. كما علم أنه إذا زال الحجاب ابتعد المانع، فإن حقائق الأشياء تظهر عند ذلك كما هى، وإلى هذا أشار الرسول صلى الله عليه وسلم حيث قال: إن لربكم فى أيام دهركم نفحات - ألا فتعرّضوها.

ولم يكن الخط الأساسى الذى سارت عليه الرباعيات إلا ما قاله ابن هروى فى التصوف: إنه إمطة السوى والكون عن القلب والسر - يعنى رفع الأعيار وعالم الكون والفساد عن الذات، واستصفاها للحضرة الإلهية، بردّ وجودها والوجود بأسره إلى الله تعالى.

وهذا الخط نفسه استنّه آخرون لأنفسهم بعد الخيام - والسلوك مُعدّ كما يقولون، فهكذا فعل النظامى (المتوفى ٥٩٦ هـ) وحافظ (المتوفى ٧٩٢ هـ) كمثالين من أمثلة كثيرة لشعراء إيرانيين كانت لهم نفس الإشراقات.

ويبدو أن الخيام كان أصيلاً ورائداً فى ذلك الطريق فاعترف به كثيرون إماماً للشعر الصوفى، وإن كان قد أوغل فى الرمزية أكثر من غيره حتى كاد التصوف أن لايبين عنده، فاختلفوا فى أمره بين مقرّ لتصوّفه، وبين مُنكر عليه.

ولست أحسب أن أحداً من النقاد يشك فى تأثير الخيام على الشعراء اللاحقين ولقد

أقسم النظامى - الذى قيل فيه أنه مقلد للخيام - أنه مذاق الخمرة فى حياته، وأن كل ما أحل الله حراماً عليه لو كان لوث فمه يوماً بشرب الخمر. ونعرف مقصود الخيام من نكر الخمر فى الرباعيات من مقصود من قلده كالنظامى وحافظ. والنظامى أخذ ببنائه العقدي فى الرباعيات، فكان يندر بالموت هو أيضاً، ويحث على الأخلاق الفاضلة وعدم اتباع الهوى والزهد فى الدنيا. ولم يكن الموت يزعجه كما قال، وكان يكثر فى شعره من المناجيات والتوبة، ويكرر طالباً العفو. وربما يخطر السؤال - يتوب من ماذا؟ والنظامى يجيب كالخيام :  
الخواطر والوساوس، والأسئلة التى لا معنى لها ولاجواب عليها حول القضاء والقدر، وذات الله، والعقاب والثواب، والجنة والنار، والقسم والأرزاق والحظوظ. خواطر آثمة، وسواس من الشيطان، ونزغات توردهم الهلكة.

وحافظ هو أيضاً كان مقلداً للخيام، وكتب إلى صديق له معاتباً أن السكر المادى لم يطرا على باله ولا دار بخلده، ولكنه قصد بالسكر العشق له والشوق إلى معرفته.

وإذن فالفاظ الخمر والساقى والزنار والحن والشرب والكناس والندامى، والمجالس فى الفجر والصباح والظهر والعصر والعشاء، وفى كل أن وحين، ليس ذلك كله إلا رموزاً لها خبىء، ولاتشير إلا لمعنى واحد، وتنتهى إلى سر واحد، هو معنى وسر الموجود الواحد، واجب الوجود، الله المتعالى ذى الجلال، فالمدامة هى مدامة حب الله، والسكر هو الاستفراق فى الذكر، والندامى هم إخوان الطريق، والقضاء والقدر والشر والموت تذكير بقدرته تعالى وتذكر فيه يختص به أولو الألباب.

وعندما نحيل إلى رسالة الخيام فى الوجود، فإنما لننصبه إلى فلسفة الخيام الوجودية. والخيام يقول إن الوجود قد صدر عن الله تعالى، إلا أن الماهية تابعة للوجود فى الخارج، ومتبوعة له فى العقل، ومعنى ذلك أنه يؤكد على الوجود كتمين حقيقى، وعلى الماهية كاعتبار عقلى. وذلك لعمرى صميم فلسفة القرن العشرين الوجودية، إلا أن الخيام يقر منها فلسفة الإيمان عن فلسفة الإلحاد، فهو يجعل لله الوجود المطلق، واتخذ الزهد طريقاً كالمتصوفة، ولاننسى قوله: إن طريقهم هو أفضل طريق.

والخيام كمتصوف ووجدى مهموم بالموت، وتصيبه من نكره قشعريرة، ويلحقه من التفكير فيه قلق، ويستشعر بذاته تنزلق منه كلما اشتدت عليه خواطر الموت والفناء والعدم فيرين عليه بحران، وكأنى به كيوكجاردي يعيش بين المسلمين فى القرن الرابع الهجرى، وتضيق نفسه

بقضايا الوجود حتى ليبغض في نفسه أن يستمر في الحياة ويفكر في الانتحار. يقول الخيام:

قلبي في صدري أسير سجين \* تخجله عشرة ماء وطنين  
وكم جرى عزمي بتحطيمه \* فكان ينهاني نداء اليقين

ولم ينتحر الخيام، فالانتحار ليس كالموت ومن ثم ليس من القضاء. والموت والانتحار كلاهما فعل ينتهي به كل فعل وتكون بهما نهاية الحياة. وكلاهما إمكانية مغلقة، إلا أن المنتحر يمارس حرিতে في أن يحيا أو يموت، بينما المائت يجهل الموت ولا يعرف عن كنهه، ولا متى يكون، ولا بأي أرض، ولا كيف يكون. ورغم أنه قَدَّر مقدور على الجميع فهو شخصي وذاتي، فالذى يموت يموت وحده ولا يموت عنه آخر. والموت حَدُّ قوَى للذى لديه الوعي به والمُدرك لشخصيته والمؤكد لذاته. وكلما قويت شخصيته كلما ازدادت معاناته بالتفكير فيه. والشخصية لاتكون قوية إلا عندما تستشعر الحرية، والذى يؤله الموت فإن ألمه يشتد لأنه يقضى على حرিতে، وعلى ذاتيته، ولهذا لا يمكن أن ينتحر أمثال الخيام - هؤلاء الشعراء الوجوديون وفلاسفة الوجود - الذين يواجهون بفكرهم مشكلة الموت وتقض مضجعهم وتطير النوم من عيونهم.

ولا يمكن أن يعنى تفكير الخيام في الانتحار وتقاعسه عن إتمامه، مع قوة شخصيته وعُلُو همته ورجاحة عقله، إلا أنه كان شديد الإيمان بالله، وأن مسكّة الإيمان هذه تميزه كوجودي ضمن الوجوديين. وليس معنى اليقين الذى يناديه فى الرباعية السابقة إلا الله تعالى واعتقاده فيه كواجب الوجود. وذلك برهان مابعد برهان أن الخيام لم يعن بالخمر أنها ابنة الكرم المادية المعصورة من العنب والتي تصبّ فى الكاسات، وأنه لم يكن يقصد بها إلا المحبة والعشق لله سبحانه. يقول: كيف يحوم القلب يوماً على غيرك أو يبغى هوى مع هواك؟ ويقول: إن دموى لم تدع عيني لحظة ترنو لحبيب سواك! - ويقول: أنا عبدك العاصى فأين رضاك؟ ولقد دجى قلبي فأين سناك؟ - ويقول: إن لم يكن ربي قد شاء ماشئت، فهل أنا أستطيع أن أفعل إلا ذاك؟ وإن يكن الله قد شاء الصواب، فما شئت من سواه كان خطأ كله! ثم ينشد:

يا مَنْ يحار الفهم فى قدرتك \* وتطلب النفس حمى طاعتك  
أسكرنى الإثم ولكنى \* صحت بالأمال فى رحمتك

\*\*\*\*\*

إن لم أكن أخلصت فى طاعتك \* فإننى أطمع فى رحمتك  
وإنما يشفع لى أننى \* قد عشت لا أشرك فى وحدتك

\*\*\*\*\*

يارب فى فهمك حار البشر \* وقصر العاجز والمقتدر  
تبعث نجاك وتبلى لهم \* وهم بلا سمع يعى أو بصر

\*\*\*\*\*

بينى وبين النفس حرب سجال \* وأنت يارىى شديد المحال  
أنتظر المفو ولكنى خج \* لآن من طمك سوء الفعال

\*\*\*\*\*

تخفى من الناس سنا ظلمتك \* وكل ما فى الكون من صنعتك  
فأنت مجلاه وأنت الذى \* ترى بديع الصنع فى أيتك

\*\*\*\*\*

يا عالم الأسرار علم اليقين \* ياكاشف الضبر عن البائسين  
يا قابل الأهدار فننا إلى \* ظلك فاقبل توبة التائبين

\*\*\*\*\*

واستطاع الخيام فى أواخر حياته أن يحقق فى نفسه الفناء عن أوصافه المذمومة، وأن يفنى عن الخلق، وعن التردد إليهم كما يقول القفطى، وقد ينس مما لديهم، وزهد فى دنياهم. وكانت علامة فنائه تركه للتكالب على الدنيا، وللتعلق بالأسباب فى جلب المنافع ودفع المضار، وصار يتمثل الله فى كل ما يفعل ويؤمن. وكانت علامة فناء إرادته فى إرادة الله تعالى أنه كفَّ عن أن يريد، وعن أن يكون له غرض أو تقف له حاجة أو مراد، وسدَّ بابه عليه، وأقلل فمه، كقول القفطى أيضاً، وأبطل كل رغبة وإرادة مع إرادة الله، ولما قارب الموت كان كما روى عنه الشهرزورى - يقرأ فى إلهيات ابن سينا، وكان صائماً عن الكلام والطعام، وقائماً فى حضرة المولى يصلّى، لا يرى أحداً سواه، وأبدى الاعتقاد أنه لاشيء مع الله، ولا يعلم إلا هو.

وكان كالفانى عن نفسه، الباقي بالله. وكان آخر ما قال رائعته بل إعجازه: «اللهم إنك تعلم  
أنى عرفتك على مبلغ علمى، فأغفر لى، فإن معرفتى إياك وسيلتى إليك». ولا يعيب الخيام أنه استخدم الخمر كرمز للعشق أو المعرفة بالله، أو للفغلة أو لحب الذات،  
أو غير ذلك مما بسطنا القول فيه فى الفصول السابقة، فهكذا فعل ابن الفارض شاعر المحبة  
الإلهية، وهو من هو فى التصوف، فقال:

شربنا على ذكر الحبيب مدامة \* سكرنا بها من قبل أن يُخلق الكرم

وقال:

فى حان سُكْرِى حان سُكْرِى لفتية \* بهم تم لى كتم الهوى مع شهرتى

وقال:

فنادمت فى سُكْرِى النحول مراقبى \* بجملته أسرارى وتفصيل سيرتى

وقال:

أدر ذكر من أهوى ولو بسلام \* فإن أحاديث الحبيب مدامى

وقال:

وفيهما حلا لى بعد نُسكى تهكى \* وخلع عذارى وارتكاب اثامى

\*\*\*\*\*

وكم يشبه ابن الفارض (٥٧٦ هـ) الخيام (٥٢٢ هـ) عندما يقول مثله الفرام هو الحياة،  
والحبيب سُكْرَة. ويعلم الله أن ابن الفارض ما ذاق الخمر ولا عرفت طريقها لفمه، ولكنه الأدب  
والفلسفة!!

\*\*\*\*\*

وأيضاً يذكر «سفر نشيد الأناشيد» من التوراة رموزاً جنسية، وفيه من الخمر الكثير  
حتى يصعب تأويل ذلك حتى على شارحى هذا السفر، ومع ذلك ينشدونه فى الكنائس والمعابد  
لأنه إن لم يكن كلام الله فهو وحيه إلى أوليائه وهم يتأولون فيه الجنس.. فلماذا لا نتأول الخمر  
عند الخيام؟ ولماذا الإصرار على أن نحسبها الخمر الحقيقية، إلا أن يكون القصد الطعن فى  
الخيام والإسلام كما جرى الطعن فى هذا النشيد وغيره من التوراة!

يقول النشيد : ما أجمل خطواتك يا بنت الأمير. دوائر فخدك كحلى صاغتها يدا صانع

حاذق. وَسُرُّكَ كَأْسٍ مَسْجُورَةٍ... ويطنُّكَ صَبْرَةٌ حَنْطَلَةٌ، وَشِدْيَاكَ كَخَشْفَى ظَبْيِيَّةٍ تَوَامِينٍ..  
وعنقك.. وعيناك.. وحلقك كخمر طيبة تسوغ بلذة لحبيبي وتسيل على شفاه النائمين!! (الفصل  
الرابع).. ليقبلني بِقُبُلٍ فِيهِ فَاؤُنْ حَبْكُ أَطِيبٍ مِنَ الْخَمْرِ! (الفصل الأول).

\*\*\*\*\*

ويعبر.. فقد كان هذا هو الشأن مع الخيام في خمرياته غير المنحولة، ومع رموز الخمر  
والكأس والساقى وغيرها، ومع التصوف عموماً.. وأرجو أن أكون قد وفيتّه.  
وبقيت كلمة عن رأى العلم فى إيمان الخمر وتأثير الإيمان على شخصية المدمن، وفكره  
وعمله ووجدانياته. وهو ماستتناوله فى الفصل القادم بإذن الله.

\*\*\*\*\*